العودة الى نقطة الصفر في لعبة الشطرنج الكردية

في غياب الحل العراقي الخيار بين الوصاية التركية او حرب الانابة

شهدت رقعة الشطرنج الكردية في منتصف تشرين الاول تطورا مفاجئا، تمثل بعودة قوات الطالباني للسيطرة على السليمانية ومعظم الاراضي التي سبق للبارزاني ان اجتاحها في مطلع ايلول الماضي. وكان تهديد الطالباني لمدينة اربيل بمثابة "كش ملك" للبارزاني. ولكن سرعان ما استرد الاخير انفاسه لمعاودة استرجاع بعض ما خسر لينتهي الامر- مؤقتا على الاقل- بحالة من التعادل تركت السليمانية بيد الطالباني واربيل بيد البارزاني.

ان حالة التعادل هذه كانت ضرورة لنجاح وساطة المبعوث الامريكي روبرت بيلليترو في اقناع الطرفين الكرديين بقبول وقف النار في 24 تشرين الاول 1996. هنا قد يقفز البعض الى تخيل "مؤامرة" اطرافها ايران وامريكا والطالباني، الامر الذي استبعده.

واقع الحال هو ان الطالباني بالتعاون مع ايران وضف الاسابيع الست التي سبقت هجومه بشكل افضل من البارزاني.

فقد التقت مصلحة الطالباني وطهران بضرورة تقليص حجم البارزاني، بما يعيد لايران شيء من نفوذها عن طريق استرجاع الطالباني لبعض مواقعه.

ولكن ايران لم تكن بوارد الانفراد بالنفوذ او السيطرة المباشرة على كردستان العراق لان هذا يعني مواجهة مباشرة مع بغداد تصل لحد اعلان حرب وبالتالي دعوة لواشنطن بضرب ايران، خاصة وان القوات الامريكية وبوارجها وطائراتها لاتزال في المنطقة.

من هنا جاء الدعم الايراني محسوبا بما لايبرر المواجهة مع واشنطن، خاصة وان هدفه اعادة التوازن السابق في كردستان وليس انفراد اي طرف في كردستان العراق. كل ذلك في وقت كان الطالباني وممثلوه يؤكدون للامريكيين حرصهم على الحفاظ على علاقاتهم مع واشنطن واستعدادهم قبول الوساطة الامريكية، وتصريح الطالباني بان اربيل لاتدخل ضمن اهدافه العسكرية كان تطمينا لواشنطن التي تدرك تماما ان طهران تملك قوة التأثير على الطالباني الى حد المنع او السماح في البدء في هجومة المضاد على السليمانية، او في قبوله الوساطة الامريكية. اختارت ايران عودة التوازن الكردي من جهة وارتضت بالدور الامريكي وسيطا.

ومن جانبها اعلنت واشنطن حيادها في الصراع بين الحزبين الكرديين، وامتنعت عن تأكيد التدخل الايراني وذهب الناطق باسم الخارجية الامريكية نيكولاس بيرنز للقول (الخميس 24/10/1996): ان الادارة الامريكية لم

تلاحظ "اي مشاركة لقوات ايرانية" في الاقتتال الكردي.

يبدو ان ايران نجحت في توظيف نهجها المسؤول في التعامل مع الشأن الكردي لمد الجسور مع واشنطن باعتبارها لاعبا مسؤولا وحريصا على استقرار كردستان والمنطقة.

ولا ندري هل تصريح بيلترو (دبي 25/10/1996) بعد اقل من 48 ساعة على وقف النار في كردستان، "نحن منفتحون على الحوار مع الحكومة الايرانية" وانه يتوقع حوارا مع طهران اذا انتخب كلينتون لولاية ثانية، هو بمثابة مكافأة لايران على موقفها "المحسوب" و "المسؤول" في كردستان.

في خضم جو الاسابيع الاخيرة من انتخابات الرئاسة في امريكا ليس من مصلحة كلينتون حصول اي مفاجأة غير سارة، ومن هنا اهمية الايجابية الايرانية في التعامل مع واشنطن، الامر الذي يذكرنا بدور ايران الاسلامية في مساعدة ريغن في هزيمة كارتر عندما امتنعت عن الافراج عن الراهن الامريكان انذاك الى مابعد انتهاء الانتخابات لحرمان كارتر من نصر دبلوماسي يعزز فرصه ضد ريغن.

البارزاني وسياسة مسك العصا من الوسط

واجه البارزاني مسؤوليات وصعاب كبيرة كان مطلوبا منه حسمها او تحييدها في فترة وجيزة، اضافة الى وجود عوامل داخلية واقليمية ودولية متناقضة من الصعب التوفيق بينها.

فالبارزاني محتاج لبغداد لتوطيد سلطته بوجه المشاكل الداخلية التي كان لابد من ان يثيرها الطالباني، ولكن بذات الوقت مطالب بالنأي بنفسه عن بغداد اذا اراد علاقات طيبة مع امريكا، التي اكدت عدم استعدادها للالتزام بدعمه ضد معارضيه من الاكراد. وتلكؤ البارزاني في "التحالف" الاستراتيجي مع بغداد، ترك الاخيرة تشك في جدوى دعمه والثمن الذي دفعته من اجل ذلك (مقالة عدي صدام حسين "ابو سرحان" في جريدة بابل 24/9/1996)، في وقت كانت المعارضة العراقية تضغط على البارزاني لفك ارتباطه ببغداد.

في مثل هذا الجو من التناقضات كان امام البارزاني خياران: الانحياز الى بغداد والتحالف مع صدام حسين بما يحصنه من هجوم مضاد للطالباني بدعم خارجي ولكنه يحمله بذات الوقت وزر ونتائج مثل هذا "الزواج" غير المقبول كرديا، وربما كان لمثل هذا الخيار حصة من النجاح لو ان النظام وصدام حسين بالذات كان قادرا على اعادة اكتشاف نفسه بالقيام بثورة بيضاء تجدد شباب النظام بالانفتاح والممارسة الديمقراطية بما يعزز الثقة بامكانية التعايش المشترك، ولكن النجاح الجزئي لبغداد من خلال دعم البارزاني زاد النظام غرورا في قدرته على التصدي و "العبور" دون تغيير في نهجه او اسلوب حكمه.

واما الخيار الثاني امام البارزاني فهو مسك العصا من الوسط، بانتظار تطور الاحداث اقليميا ودوليا بتأهيل نظام صدام حسين او اسقاطه، وهذا ما اعتمده البارزاني.

العودة الى نقطة الصفر

الذي حصل ان الطالباني بدعم من ايران وسكوت واشنطن، استطاع قلب الطاولة للعودة بكردستان الى نقطة الصفر المتمثلة بحالة التوازن الهش بين الحزبين الكرديين.

ان التوازن في الحالة الكردية يخدم كافة دول الجوار بما يمنحها من فرص للتدخل والنفوذ، بينما حالة الانفراد بالحكم في كردستان تكريس لخطر "الانفصال"، وهذا ما اشار اليه الناطق الرسمي باسم الخارجية الامريكية (25/20/1996)، بان الادارة الامريكية لاتسعى الى "دولة جديدة" في شمال العراق. ولكن بذات الوقت تدرك واشنطن بان حل المشكلة الكردية لايتم الا بالعودة الى المركز، الامر الممنوع حاليا مادام صدام حسين في السلطة، وعليه تعود واشنطن مرة اخرى بالاكراد الى حالة "الانتظار" التي كانت احد الاسباب وراء تفجر الاقتتال الكردي.

تتهم بغداد الوساطة الامريكية بانها مجرد "ترتيب مؤقت" لايضمن السلام والاستقرار، وهو تشكيك مشروع في غياب حل مستقبلي وعملي وشامل. ولكن واشنطن تلوح للاطراف الكردية بانها ستكون اكثر فاعلية هذه المرة واعلنت عن دعوتها للقاء موسع للاطراف الكردية بمشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا وتركيا، يعقد في منتصف تشرين الثاني في انقرة لوضع الاسس الكفيلة باستمرار السلام الكردي.

ان توقيت الاجتماع بعد الانتهاء من انتخابات الرئاسة الامريكية، هو نجاح ولو مؤقت لمساعي بيللترو في تهدئة الاوضاع في شمال العراق بمايخرج القضية الكردية من دائرة التهديد بمفاجأت محرجة.

ولكن السؤال: هل ستكون الادارة الامريكية الجديدة، بافتراض نجاح كلينتون، على استعداد لاعادة النظر في سياستها تجاه المنطقة والعراق بالذات القائمة على "الاحتواء المزدوج"؟

الحاجة لدور تركي جديد

ان مثل هذه المراجعة تتطلب وقتا اطول من مجرد ايام معدودة بعد انتهاء الانتخابات، ولذا سيكون هم الادارة الامريكية القادمة هو ضمان حالة الاستقرار "المؤقت" في شمال العراق. وفي غياب استعداد امريكي للتواجد المباشر في الشمال العراقي، وتصدع دور "المؤتمر الوطني العراقي" (تم نقل اخر مجموعة من عناصره البالغة600 شخص الى جزيرة غوام)، ستكون واشنطن مضطرة لقبول دور تركي اكثر فاعلية في الشأن الكردي العراقي مدعوما بالمال والردع الجوي الامريكيين.

ان لتركيا كل المصلحة في استقرار شمال العراق بما يسمح، من جهة بتنفيذ القرار 986 الذي سيعود بالفائدة المالية على تركيا (التي خسرت اكثر من 22 مليار دولار بسبب الحظر الاقتصادي على العراق) جراء مرور النفط العراقي بأراضيها بالدرجة الاولى واعتماد تركيا مصدرا للمشتريات العراقية، ومن جهة ثانية، تأمل تركيا ان يؤدي وقف القتال الى حرمان حزب العمال الكردستاني من فرص العمل في شمال العراق ضد تركيا.

سبق لتركيا في الماضي ان اعتمدت الحل العسكري المباشر لقمع حزب العمال ولكن دون جدوى، ومن ثم اقامت تحالفات مع طرف كردي عراقي- تارة الطالباني وتارة اخرى البارزاني- لضرب العمال الكردستاني، ومرة اخرى فشلت هذه السياسة لسبب بسيط ان الطرف الكردي الاخر سيجد من مصلحته حماية حزب العمال لموازنة كفة الطرف الكردي العراقي المتحالف مع تركيا.

الجديد في السياسة التركية هو سعيها الى مسك عصا القبان من الوسط بحيث تصبح مرجعية السلام ووقف اطلاق النار لكلا الطرفين الكرديين العراقيين، بما يخرج حزب العمال الكردستاني من المعادلة السياسة في شمال العراق من جهة ويوفر المناخ لتنفيذ القرار 986.

ان ملامح هذا الدور تعكسه الاحداث التالية:

- تحول انقرة وليس لندن او دروغيدا مقرا للتفاوض بين الاطراف الكردية برعاية امريكا.

- ان تسليم بغداد بهذا الدور لتركيا يقابله تراجع انقرة عن تنفيذ المنطقة العازلة التي يريد الجيش التركي اقامتها في شمال العراق، وتبقى تركيا بالمقارنة بايران او الولايات المتحدة خيار بغداد المفضل.

- التزام انقرة الحياد في الصراع المتجدد بين الطالباني والبارزاني، وجاءت زيارة الطالباني الاخيرة لتركيا لتصل ما انقطع من علاقة بين الاثنين ولتؤكد حاجة كل من الطرفين للاخر: الطالباني بحاجة لتركيا كمنفذ يخرجه من الاحتضان الايراني، وتركيا بحاجة اليه لنجاح معادلة التوزان السياسي الجديد برعاية تركيا.

- العلاقة الايجابية التي نجح رئس الوزراء الاسلامي التركي، نجم الدين اربكان، في اقامتها مع طهران مؤخرا وتوصل الطرفين (23/10) الى اتفاق أمني يحظر استخدام اراضي البلدين من قبل اطراف المعارضة لأي منهما، تضع اساسا ايجابيا للتعامل بين البلدين.

- تصاعد التمثيل التركماني العراقي في التحرك الدبلوماسي التركي مع الاكراد وواشنطن يعكس رغبة تركية لاعتمادة بديلا عن "المؤتمر الوطني العراقي" كطرف ثالث بين الحزبين الكرديين المتصارعيين خاصة وان "المؤتمر" بانحيازه لطرف كردي دون اخر فقد مصداقيتة كوسيط مقبول، وترحيل عناصره من كردستان العراق تشير الى

هذا التحول. وتأتي دعوة تركيا لعقد مؤتمر للاحزاب التركمانية العراقية في انقرة في منتصف تشرين الثاني 1996، انسجاما مع الدور الجديد لتركمان العراق كذراع سياسي لتركيا في العراق.

ان الوصاية التركية على كردستان ستكون بمثابة صمام امان (Safety valve) مؤقت يضبط كردستان العراق من انفجار جديد، بانتظار حل يعيد كردستان العراق للمركز، وهو غير مسموح به مادام صدام حسين في الحكم واستمرار واشنطن في اعتماد سياسية الاحتواء المزدوج.

ان المواطن الكردي العادي الذي انهكه الصراع الدموي "العبثي" بين الحزبين الكبيرين يبقى بحاجة للسلام والاستقرار ولقمة العيش اولا، وليس انتصارات وهمية، وخير ما يمثل هذه الحالة تعليق مواطن كردي على دخول قوات الاتحادالكردستاني السليمانية يوم 13 تشرين الاول الماضي بقوله: "انه مجرد يوم اخر، البارتي غادر والاتحاد دخل، بالامس كنا نحمل اعلاما صفر (حزب البرزاني)، واليوم عندنا اعلام خضر (حزب الطالباني)".

ان قدر الاكراد اليوم هو القبول بوصاية تركية بأمل تحقيق سلام "مؤقت"، او اقتتال كردي يتحول الى حرب بالانابة عن بعض دول الجوار.

اما الخيار العراقي المستقل فهو ضحية نظام دكتاتوري فرض نفسه قدرا مشؤوما على الشعب، ودولة كبرى استفردت بزعامة العالم لاتجد ضررا في استمرار معاناة الشعب العراقي بعربه واكراده مادام يحقق استراتيجة "الاحتواء المزدوج" التي لم تعد تصلح علاجا.

(الملف العراقي، العدد 59 - تشرين الثاني 1996)

❋ ❋ ❋